المعرب في كتاب سيبويه

د. علي الشابي

الجامعة التونسية

عُنِي العلماء منذ القديم بالبحث في الكلمات الأجنبية التي دخلت العربية نتيجة للاتصال الحضاري الذي حدث بين العرب وأجوارهم وبخاصة الفرس، فقد وقع الاتصال بين العرب والفرس قبل الإسلام عن طريق الحيرة وبلاد اليمن، فتمكن كل من الطرفين من معرفة الآخر ومن الاحتكاك بلغته وأفكاره، وكانت حضارة فارس في أوج تألقها، ففتنت مباهجها عرب الحيرة واليمن، وشاعت الكلمات الحضارية الفارسية في اللغة العربية، وما لبثت أن تأصلت فيها وأصبحت جزءا منها فتجلّتْ في الشعر الجاهلي، خاصة على أيدي الشعراء الذين كانوا يفدون إلى بلاط الحِيرة أو ينتسبون إلى أرض اللخميين من أمثال الأعشى والنابغة الذبياني وعديّ بن زيد العبادي، وكان هذا الأخير كما يقول ابن خلدون (التاريخ 52/2) من تراجمة الملك الفارسي كسرى برويز. وقد احتوى القرآن الكريم على ألفاظ فارسية كثيرة[1] عرفها العرب في الجاهلية

واستخدموها في لغتهم، وازداد الاتصال عمقا بين الأمتين في ظل الفتح الإسلامي وتأكد التأثير اللغوي، فعُدَّ التبادلُ ظاهرةً لُغوية سلكت اللغتين جميعا، لذلك بدأت عناية المسلمين بالمعرَّب منذ القرن الثاني في نطاق حركة التّدوين والتّقعيد.

والمُعْرَبُ (من أعرب) حسب سيبويه أو (المعرَّب) من (عرَّب) يطلق في اللغة على الأسماء الأجنبية التي دخلت العربية وأخضعها العرب لمناهجهم، جاء في اللّسان في مادة (عرب) (تعريب الاسم الأعجمي أن تتفوّه به العرب على منهاجها تقول عَرَّبَتْهُ العربُ وأعْرَبَتْهُ أيضا)، ويراد منه اصطلاحا في عصر تال لعصر سيبويه الكلمات الأعجمية التي جرت على ألسنةً عرب الأمصار حتى نهاية القرن الثاني وعلى ألْسِنَةِ بَدْوِ الجزيرة حتى أواسط القرن الرابع، حيث كانت اللغة العربية مبرَّأةً من اللَّحْنِ وبعيدة عن الخطأ وخاصةً من كلّ الشوائب، فاكتسبت الكلماتُ الأجنبية بذلك فصاحة العربية نفسها وانطبعت بطابعها، لذا يصحُّ الاحتجاج بها، أما الكلمات الأجنبية التي تُنْسَبُ إلى ما بعد هذه الفترة فقد سَمّوها بالمولَّدة، ولا يصح الاحتجاج بها في أصل من أصول اللغة، لأن عربية أهل البادية أنفسهم أصبحت في المنتصف الثاني للقرن الرابع غير معتمدة لاضطراب الألسنة وتقلص عادة الفصاحة. يقول ابن جنّي (وكذلك أيضا لو فشا في أهل الوَبَرِ ما شاع في لغة أهل المَدَرِ من اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاص عادة الفصاحة وانتشارها لوجب رفض لغتها وترك تلقي ما يرد عنها وعلى ذلك العمل في وقتنا هذا

[المنتصف الثاني للقرن الرابع] لأنا لا نكاد نرى بدويا فصيحا، وإن نحن آنسنا منه فصاحة في كلامه لم نكد نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه وينال ويغض منه)[2]. هذا التحديد المتعسف ظهر في القرن الرابع الهجري ويتضمن نظرة توقيفية أشاعها ابن جني وابن فارس ونظراؤهما في البحث اللغوي، وهي نظرة لا مفر من اطراحها إذ ينجرُّ عن اعتمادها تَوقُّفُ الفكر وتجمُّدُ الحضارة، وعلينا أن نعتمد في مقابل ذلك مذهب سيبويه الذي سبق تصنيف الدّخيل، فإنّ اللغة العربية ليست باللغة التي كتب عليها الجمود، وليست باللغة التي كتب عليها أن تقصر على أهل البادية ومن يشبههم من أهل المدن أو القرى العربية القديمة[3] ، ومن الحق أن أقول إن هذا التوقيف قد سيطر على اللغة العربية في مرحلة التصنيف والتعقيد، وشبيه بهذا ما وقع للفارسية الإسلامية نفسها فقد أشار ابن جني في مفاوضته بين اللغتين العربية والفارسية إلى أن اللغة الفارسية في عصر الإحياء أي في القرن الرابع الهجري قد التزمت هذا التوقيف فلم تتسع إلا للرصيد الدّرّي الموروث، جاء في الخصائص (ألا ترى أنهم]العجم[إذا أورد الشاعر منهم شعرا فيه ألفاظ من العربي عيب به وطُعنَ لأجل ذلك عليه)[4] .

إن بحث سيبويه للمعرب يعتبر أول بحث تناول هذه الظاهرة من الزاوية اللغوية الصرف، وهو بذلك قد مهد السبيل لعلماء النحو والصرف وأصحاب المعاجم الذين كتبوا في هذا الباب، صحيح أن الخليل تناول المعرب، إلا أن تناوله لم يكن مركّزا ووافيا، لهذا لفت بحث

سيبويه أنظار اللغويين فَقَفوا على أثره، فمثلا كتب أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي في القرن الثالث كتابه « الغريب المصنف » فأفرد للمعرب فصلا بعنوان (ما دخل من غير لغات العرب في العربية) وفي جمهرة ابن دريد (القرن الرابع) (باب ما تكلمت به العرب من كلام العجم حتى صار كاللغة) وفي المخصص نقل ابن سيده (القرن الخامس) في الجزئين الرابع عشر والسادس عشر (ط. بولاق) ما كتبه سيبويه حرفيا بالعنوانين اللذين نطالعهما في الكتاب (باب ما أعرب من الأسماء الأعجمية) و(باب اطراد الابدال في الفارسية) كما كان تأثير الكتاب واضحا فيما كتبه أغلب النحويين وعلماء الصرف من أمثال المبرد (تـ 285/898) في كتابه « المُقتضب » 1973, وأبي بكر محمد بن السراج (تـ316/928) في كتابه « الموجز في النحو » وابن جني (تـ 392/1001) في « الخصائص»، وابن يعيش (643/1245) في «شرح المفصل»، وابن مالك (تـ 672/1273) في ألفيته، وابن عقيل (تـ 769/1367) في شرحه على الألفية، وأبي حيان النحوي (القرن السابع - الثامن) في كتابه (ارتشاف الضرب) **-بسكون الراء وفتحها-**. ففي تناولهم المعرب في أبواب الإعراب والتكسير والابدال نقلوا كلام سيبويه دون تغيير أو إضافة. ويشير ظهور أول معجم أفرد لموضوع المعرب في القرن السادس وهو «المعرّب» للجواليقي إلى مرحلة جديدة ترمز إلى عناية اللغويين بهذا الموضوع من خلال توافر المادة المدروسة وتعدد الجهود المبذولة وما أصابها من تطور طيلة قرون أربعة تقريبا.

درس سيبويه المُعرَّب دراسة نحوية وصرفية أي من حيث بِنيتُه وزنًا وتكسيرًا وابدال حروف، ومن حيث إعرابه صرفا ومنعا، واستخلص قواعده من خلال كلمات أغلبُها فارسي اتخذها نموذجًا لما يُشاكلها في اللغة، وقد قال (فهذه حال الأعجمية فَعَلى هذا فوجِّهْهَا)5 وهذا المبدأ هو الذي اعتمده النُّحاة الذين جاؤوا من بعده وعبّر عنه المازني (ت 861/247) بالاعتماد على سيبويه بقوله (ما قيس على كلام العربِ فهو من كلامهم)[6].

وهذه الكلمات الواردة في الأبواب المعينة نثبتها مع تحديدنا لأصلها وشرحنا لها:

- **لَجام:** أصلها في الفارسية (لكَام).
- **يرندج:** أصلها في الفارسية (رنده): جلد أسود.
- **نيروز:** أصلها في الفارسية (نوروز) (نو: الجديد). (روز: اليوم): اليوم

الجديد، وتطلق على عيد فارسي قديم هو عيد الاعتدال الربيعي، وموعده 21 مارس الموافق لأول فروردين أول شهور السنة الإيرانية، وما يزال الإيرانيون يحتفلون به.

- **فرند:** أصلها في الفارسية (برند): السيف وجوهره ووشيه.
- **زنجبيل:** نبت معروف، أصلها في الهندية (شنكبيل).
- **الياسمين:** أصلها في الفارسية (ياسمين، يا سمن يا سم).
- **سهريز:** فارسية ومعناها: نوع من التمر.

- **آجر:** أصلها في الفارسية (بيروز)، وأصل معناها (مظفر) وتطلق على نوع من الحجارة الكريمة.
- **هرمز:** علم.
- **إسماعيل:** علم.
- **إسحاق:** علم.
- **يعقوب:** علم.
- **مُوْرج:** أصلها في الفارسية (موزه): الحذاء الصغير، الخف.
- **صولج:** أصلها في الفارسية (جوكان): العود المعقوف.
- **كُرْبَجْ:** أصلها في الفارسية (كُرْبِهْ): الحانوت، وتطلق في لهجة أهل الجريد بالجنوب التونسي على النفايات الموضوعة في مكان واحد.
- **طليسان:** أصلها في الفارسية (تالسان): كساء يرتديه كبارُ العلماء والمشائخ.
- **جورب:** أصلها في الفارسية (كُورَبْ) غطاء الرّجل المعروف.
- **كَيلج:** أصلها في الفارسية (كيله): كيل محدّد معروف، والفارسية بدورها مأخوذة من الأرامية.
- **درهم:** مأخوذة من اليونانية.
- **دينار:** مأخوذة من اللاتينية.
- **رُستاقْ:** أصلها في الفارسية (رُوسْتَا): القرية الزراعية.
- **إبريسم:** أصلها في الفارسية (شَرْوَالْ) وأصلها (سَرْبَالْ) مركَّب من (سَرْ: فوق) و(بال: القامه).

- **قهرمان:** فارسية ومعناها: الآمر.
- **خراسان:** أفغانستان والمنطقة الشمالية الشرقية لإيران.
- **خرّم:** فارسية ومعناها: سعيد
- **كُركُم:** فارسية ومعناها: الزعفران، وتطلق في اللهجة التونسية الحالية على نبتة تقوم مقام الزعفران وهي بالفارسية حاليا (زَرْدْجُوبهْ).
- **بقّم:** أصلها في الفارسية (بكم): شجر كبير ورقه كورق اللوز، وساقه أحمر، يصطَبِغُ بطبيخه.
- **جربز:** أصلها في الفارسية (كَربز): مَكَّارٌ، مُخادع.
- **كُوسه:** فارسية معناها: الأمرد، القليل شعر العارضين.
- **فندق:** أصلها في الفارسية (بُنْدُق): وهو المعروف في تونس بالبندق.
- **زور:** فارسية معناها: القوة، الغلبة.
- **آشوب:** فارسية، مادة أصلية من المصدر (آشفتن): الاضطراب، الاختلاط.
- **شُبَارق:** أصلها في الفارسية (بيشباره): كعك يصنع من الدقيق والعسل والزيت، وتطلق أيضا على ألوان اللحم في الطّبائخ.
- **زَبَاني:** أصلها في الفارسية (زَبَانِي) الجهنميّ، من (زبان): شعلة النار.
- **ديباج:** أصلها في الفارسية (ديبا): نسيج حريري.
- **بهرج:** أصلها في الفارسية (بَهْرِه): نصيب، ويراد منها المباح.

نجد في هذه الكلمات الثماني والثلاثين ثلاثين كلمة فارسية، وأربعة كلمات غير فارسية، وأربعة أعلام، مما يدل على أن عناية سيبويه كانت منصرفة إلى الجانب الفارسي من المعرّب، وهو أمر تبرره نسبته وثقافته الفارسيتان، وشيوعُ الفارسية أكثر من غيرها في اللغة العربية. وما تناوله في بحثه يمكن حصره في قضيتين:

1- قضية الإعراب، وهي قضية نحوية.

2- قضية التكسير والإلحاق بالأبنية العربية وإبدال الحروف، وتندرج في مباحث علم الصرف.

تناول سيبويه القضية الأولى تحت عنوان (هذا باب الأسماء الأعجمية)[7]. ويمكن خصر كلامه في هذا الباب في ثلاث مسائل.

المسألة الأولى:

إذا تمكنت الأسماء المعربة بدخول (أل) عليها وبصحة تنكيرها، وصيّرت أعلاما وجب صرفها، إلا أن يمنعها من الصرف ما يمنع الأسماء العربية، وذلك نحو اللجام والديباج واليرندج والنيروز والزنجيل والياسمين، وقد اعتمد اللاحقون -عدا الشّلوبين وابن عصفور- سيبويه، فحاكموه في تقرير هذه القاعدة وفي إيراد أمثلة استمدوها مما أورده في الأبواب المتعلقة بالمعرب، من ذلك ما قاله المبرد (والمعرب منها]الأعجمية[ما كان نكرة في بابه لأنكم تعرفه بالألف واللام، فإذا كان كذلك كان حكمه حكم العربية لا يمنعه من الصرف إلا ما يمنعها فمن

ذلك راقود، وجاموس، وفرند، لأنك تعرفه بالألف واللام)[8] وما قاله ابن جني (ألا تراهم يصرفون في العلم نحو آجر وإبريسم، وفرند، وفيروزج، وجميع ما تدخله لام التعريف وذلك أنه لمّا دخلته اللام في نحو الديباج والفرند والسهريز والآجر أشبه أصول كلام العرب أعني النكرات، فجرى في الصرف ومنعه مجراها)[9] وتفرد الشّلوبين وابن عصفور بقولهما: إن السماء التي ليست أعلاما في لغاتها الأصلية واستخدمت أعلاما في العربية من أول الأمر كبندار]وتعني في الفارسية: التاجر الذي يخزن البضائع أو يبيع المعادن[تنزل منزلة الأعلام المعربة الباقية على علميتها في العربية فتمنع من الصرف. أما بقية النحويين فقد نزّلوها - تأسّيًا منهم بسيبويه- منزلة الأسماء المعربة المتمكنة التي صيرت أعلاما فصرفوها مراعين في ذلك استعمالها الحقيقي في لغاتها الأصلية[10].

المسألة الثانية:

إذا انتفى الشبه بين بنْيَة الاسم المعرب المتمكن والأبنية العربية فإن الاسم المعرب لا يمنع من الصرف، ومثّل لذلك بالآجر، وقرر بأنه لا يشبه شيئا من كلام العرب، ورأى أن ينزله منزلة الكلمة العربية التي لا نظير لها، نحو (إبل)، فحكم بصرفه إن لم يمنعه من الصرف ما يمنع العربي[11].

المسألة الثالثة:

إذا لم تتمكن الأسماء المعربة وبقيت أعلاما كما كانت في الأعجمية منعت من الصرف كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وهرمز وقارون

و فيروز وفرعون وأشباهها، بيد أن سيبويه لم يتناول الأعلام الثلاثية، وظاهر كلامه أن حكم المنع من الصرف مطرد في الأعلام المعربة، سواء أكانت ثلاثية أم غير ثلاثية، ويتفق اللغويون مع سيبويه في منع غير الثلاثية منها من الصرف، أما الثلاثية فينقسمون بشأنها إلى قسمين:

أ)- يرى السيرافي وأبو بكر محمد بن السراج وابن برهان وابن خروف أن الأعلام المعربة الثلاثية مصروفة لا فرق في ذلك بين الساكنة الوسط كنوح ولوط والمتحركة كشَترولضمَك.

ب)- يقول عيسى بن عمر الثقفي وابن قتيبة والجرجاني والزمخشري بجواز الوجهين: الصرف وعدمه في الساكنة الوسط، وبوجوب المنع في المتحركة الوسط.

ومن خلال القواعد المقررة تبدو دقّة سيبويه إذ تقصى وضع الكلمات باعتبارها نماذج، وأثار ما يمكن أن يرد عليها من اعتراضات وفندها، فالأسماء المعربة المتمكنة تصرف إلا إذا منعها ما يمنع الأسماء العربية من الصرف، وهو بهذا يدمجها في صلب العربية، ويجري عليها ما يجري على الأسماء العربية، كما أنه لم يعدم نظيرا لكلمة (اَجُرّ) من حيث تفردها ببنيتها، وهذا يدل على ما اتسمت به عقليته من دقة ونفاذ.

ونرى أن القضية الصرفية التي خص بها سيبويه المعرب تندرج في ثلاث مسائل:

1- التكسير.

2- الإلحاق بالأبنية العربية.

3- إبدال الحروف.

تناول في (باب ما كان من الأعجمية على أربعة أحرف وقد أعرب فكسرته على مثال مفاعلَ)[12] الأسماء الرباعية المعربة، وقرر بأنها تكسّر على مثال (مفاعلَ) باعتبارها الصيغة الغالبة لمنتهى الجموع، وقاس المعرب على الأسماء العربية في نطاق ما هو مسموع لأن جموع التكسير سماعية لا قياسية. وقصده من ذلك إبراز الطابع العربي الذي اكتسبته هذه الأسماء، وفي بداية هذا الباب أشار بالاعتماد على الخليل إلى أن أغلب الأسماء المعربة المكسرة تلحق بها الهاء غالبا. وأورد موزج (موازجة) صولج (صوالجة)، كربج (كرابجة)، طيلسان (طيالسة)، جورب (جواربة)، كما قالوا (جوارب) دون هاء كصوامع في العربية، ويصح في كليج (كيالج) كواكب، و(كيالجة)، ونظيره في العربية: صياقلة وصيارفة وقشاعمة. وبين ان هذه الكلمات المعربة ملحقة بمفاعل في الحكم لا في الوزن أي أنها تمنع من الصرف إلا إذا ألحقت بها التاء.

وفيما يتعلق بالمسألتين الأخيرتين (الإلحاق والإبدال) ينبغي أن نشير إلى أن القواعد المستخلصة في هذا الصدد هي كغيرها من القواعد النحوية والصرفية قواعد تقريبية، وأنها إلى ذلك مضطربة تتداخل فيها الأمثلة ولا تتضح من خلالها المجموعات بالقدر الذي تتيحه القواعد عادة. وحسب سيبويه أنه حاول القيام بهذا التصنيف حتى يسهل للدارسين الوقوف على ما كان يجري على ألسنة العرب حين كانت تسقط إلى لغتهم الألفاظ الأجنبية، فينطقون بها كما شاءت سليقتهم،

وقد أشار الجواليقي إلى ذلك بقوله (وإذا كان حكي لك في الأعجمية خلاف ما العلامة عليه فلا ترينه تخليطا، فإن العرب تخلط فيه، وتتكلم به مخلطا، لأنه ليس من كلامهم فلما اعتنفوه]أتوه ولم يكن لهم به علم[وتكلموا به وخلطوا)[13].

فصل سيبويه القول في المعرب من حيث الإلحاق والتغيير، ووضع له أحكاما تتفق مع الإلحاق أو عدمه، ويتضح من كلامه أن الغالب هو الإلحاق، وعندئذ تأخذ الأسماء المعربة أحكام الأبنية العربية وهو الأمر الذي يهتم به النحويون يقول: (اعلم أنهم مما يغيرون من الحروف الأعجمية ما ليس من حروفهم البتة، فربما ألحقوه ببناء كلامهم وربما لم يلحقوه، فأما ما ألحقوه ببناء كلامهم: فدرهم ألحقوه ببناء هِجْرَع، وبَهْرَجٌ ألحقوه بسَلْهَبَ، ودينار ألحقوه بديماس، ودِيبَاجٌ ألحقوه كذلك. وقالوا إسحاق فألحقوه بإعصار، ويعقوب فألحقوه بيَرْبُوع، وجَوْرَبٌ فألحقوه بفَوْعَل، وقالوا آجُورٌ فألحقوه بعَاقُول، وقالوا شُبَارِقٌ فألحقوه بعُذَافِرٍ، ورُسْتَاقٌ فألحقوه بقُرطَاس لما أرادوا أن يُعْرِبُوه ألحقوه ببناء كلامهم... وربما تركوا الاسم على حاله إذا كانت حروفه من حروفهم، كان على بنائهم أو لم يكن، نحو خُراسان وخُرَّم والكُركُم)[14].

والبنية الواردة مع أمثلتها تجدها منبثَّة في نصوص اللغويين والنحاة واللذين جاؤوا من بعده، دون أن يضيفوا إليها جديدا بل إنهم كانوا ينقلون أقواله بلفظها[15] .

يتضح من هذا أن المعرب الملحق بالأسماء العربية يأخذ حكم الأبنية

العربية من حيث الأصل والزيادة والوزن، لا فرق في ذلك بين أن يكون هذا المعرب قد أصابه التغيير أولا، فمن الأسماء التي ألحقت دون تغيير وأخذت حكم الاسم العربي (دِرْهم) ألحق بِهِجْرَع]أحمق[(وبَهْرَج) بسَلْهَب]طويل...[ومن الأسماء التي أصابها التغيير ولم تلحق (آجُر، سفسير)، ومن الأسماء التي لم يصبها التغيير (خراسان) و(كُركُم)، خرسان لم تلحق، وكركم ألحقت،

وهنا تكمن أهمية مبحث سيبويه، فهو يقرر حسبما نَفْهَمُ من نصه، أن العرب يجيزون التعريب بإحدى طرق ثلاث:

1- طريقة الإلحاق بالأبنية العربية مع الإبدال أو بدونه.

2- طريقة الإبدال من غير إلحاق.

3- طريقة ابقاء الكلمة المعربة على حالها من غير تغيير أو إلحاق بالأبنية العربية واقرار وزنها إلى جانب الأوزان العربية كـ(فُعالان) لخرسان، (إفْعيلل) لإبريسَم و(فَاعُلّ) لآجُرّ، لأن الأبنية العربية مدارها وضع الكلمة من حيث الاشتقاق والزائد والأصليّ من حروفها، وهو ما تفتقده الكلمات الأجنبية، لكن العرب فضلوا غالبا الطريقة الأولى وهي الإلحاق بالأبنية العربية.

في حديثه عن الإبدال يتجلى ميله لاستخلاص القواعد مهما تشعب الموضوع واختلطت مقاييسه، فقد تناول ما يطرد فيه وما لا يطرد.

فما يطرد فيه الإبدال ضبطه في القواعد التالية:

1- إبدال الجيم باطراد من (كَـ: g): القاف المعقودة]الكاف الشديدة المجهورة، وحسب ابن الجزري، الكاف الصّماء[(لأنها -كما يقول سيبويه- ليست من حروفهم)16. ولذلك عدها حرفا غير مستحسن في لغة من ترتضى عربيّته -(الكتاب، 588/2) مثل جُرْبُزْ من (كُرْبُزْ= Girboz) وجَوْرَب من (كورَبْ) (Gorab)، وربما أبدلوها بقاف (لأنها قريبة) حسب تعبير سيبويه17 فقالوا (قُرْبُزْ).

2- إبدال الجيم من هاء السكت المتطرفة المبدلة في الفارسية الدّرّيّة من القاف المعقودة في البهلوية مثل (كَوسَج) من (كُوسه) و(مّوزج) من (مُوزِهْ)، وعلل هذا الإبدال تعليلا يدل على دقة معرفته بالنحو الفارسي ونصه: **(لأن هذه الحروف تبدل وتحذف في كلام الفرس همزة مرةً، وياءً مرة أخرى، فلما كان هذا الآخر لا يشبه أواخر كلامهم صار بمنزلة حرف ليس من حروفهم، وأبدلوا الجيم لأن الجيم قريبة من الياء، وهي من حروف البدل، والهاء قد تشبه الياء، ولأن الياء أيضا قد تقع آخرة، فلما كان كذلك أبدلوها منها كما أبدلوها من الكاف]الكاف الصماء[وجعلوا الجيم أولى، لأنها قد أبدلت من الحرف الأعجمي الذي بين الكاف والجيم]الحرف نفسه[فكانوا عليها أمضى)**[18].

وقد استخلص سيبويه هذه القاعدة من خلال لغة التخاطب الفارسية في القرن الثاني لأن الفارسية لم تصبح بعد الفتح لغة ثقافية إلا في القرن الرابع، وتبعا لذلك ضبطت قواعدها في فترة تالية، لهذا يعد صاحب

الكتاب في رأينا أقدم من عني بنحو اللغة الفارسية الإسلامية، فقد سبق إلى وضع أول قاعدة نحوية عرفها تاريخ النحو الفارسي.

وبين أنه لا يمكن فهم هذا النص إذا لم تكن لنا معرفة بالفارسية ونحوها[19] فهو يشير إلى أن هاء السكت المتطرفة تنطق في الفارسية على شكلين: تارة على شكل همزة وأخرى على شكل ياء، وتقتضي القاعدة النحوية الفارسية وجوب النطق بالهاء على شكل همزة إذا كانت في كلمة نكرة مثل:

مُوزه أي Muze-Yé = خف.

دانشكده أي Danech-Kede-Yé = كلية.

شُمَاره أي Somare-Yé = عدد.

أو في كلمة مضافة إذا تقدم المضاف على المضاف إليه، فإن الإضافة تتحقق بقلب كسرة الإضافة همزة مكسورة تنطق بدل الهاء نحو:

مُوزهء مَرْد Muze-Yé Mard = خف الرجل.

تَرْجَمهء حَال فخررازي = Tarjome-Yé Hali Faxri-Razi = ترجمة الفخر الرازي.

أو في آخر موصوف متقدم على صفته فإن العلاقة الوصفية تتحقق بكسر الموصوف، ولما كان الموصوف منتهيا بهاء فإن الكسرة تقلب همزة مكسورة نحو.

خانِهء بزرك = Xane- Yé Bozorg = البيت الكبير.

كما تقتضي القاعدة النحوية النطق بالهاء على شكل الياء في غير حالات التنكير والوصف والإضافة مثل:

مُوزه = Muze = الخف.

شُمَاره = Somare = العدد.

ويعلل سيبويه هذا الإبدال تعليلا صوتيا أساسه التشاكل بين الجيم والياء، وبين الياء والهمزة، واعتماد الجيم كحرف بدل للحرف الفارسي الذي لا يوجد في العربية، وبناء على أن الجيم أبدلت من القاف المعقودة فإنها تبدل أيضا من (هاء السكت) **(وجعلوا الجيم أولى لأنها قد أبدلت من الحرف الأعجمي الذي بين الكاف والجيم]الحرف نفسه[فكانوا عليها أمضى)**[20] وتبعا لذلك تقوم القاف أحيانا مقام الجيم فتبدل من هاء السكت. فقد نطق بعضهم بـ (كَوْسَق) بدل (كَوْسَج) (وَقُرْبَق) بدل (قرْبَج) و(كُرْبَقٍ) قال الراجز:

يا ابن رقيع هل لها من مَغْبَقِ مَا شربت بعد طَويّ القُرْبَقِ
مِنْ قطْـرة غَيرِ النّجـاء الأدْفَـقِ

3- إبدال الباء أو الفاء من (الباء المهموسة = p وقد عدها سيبويه حرفا غير مستحسن 488/2 وسماها ا الباء التي كالفاء ا) فقالوا في (بِرَنْدِ) فرند وبرند، لأن الباء والفاء متشاكلان وقريبان من (p) وهي جميعا حروف شفوية **(فالبدل مطرد في كل حرف ليس من حروفهم، يبدل منه ما قرب منه من حروف الأعجمية)**[21].

4- تغيير الحركة في الكلمة المعربة قصد إخراجها عن نطقها الفارسي كما في (زَوْرْ) فقد أصبحت بعد تعريبها (زُورْ) بضم الزاي، وكما في

(آشوب) من المصدر (آشوفتَن = آشفتن) فحين عربت حذف مدها (أشوب).

وأما ما لا يطرد فيه البدل: فيتمثل في ثلاثة حروف:

1- الشين: وتبدل في الاسم المعرب سينا لتشابههما في الهمس والانسلال من الثنايا، ومثل لذلك بسراويل، وأصلها في الفارسية (شَرْوَال)، ويمكن إضافة بعض الأمثلة الأخرى الواردة في المعرب، فقالوا في (دشت): ومعناها الصحراء، (دَسْتْ)، وفي (بَنَفْشِه) (بنفسج).

وفي (لَشْكَر) (عَسْكَر)، وفي (نِيشَابور) (نِيسابور)، وفي (ابريشم) (ابريسَم).

2- الهمزة: وتبدل في الاسم المعرب عينا لتشابه الحرفين في النطق، فالهمزة المنطوقة في الكلمة العبرية (اشماؤيل) أصبحت عينا على ألسنة العرب (اسماعيل).

3- الزاي: وتبدل لاما، فقد قالوا (قَفْشَلِيل: ومعناها المغرفة) بدل (كَفْجَلاز).

والملاحظ أن سيبويه استخلص هذه القواعد من الواقع اللغوي دون أن يستكمل كل الضوابط في هذا الموضوع، ولم يقف عند الإبدال فيما يلي:

1- الدال المصاحبة للهاء الصامتة المتطرفة التي تبدل في الملمة المعربة ذالاً نحو:

(سَاده) معناها: بسيط (سَاذَجٌ).

(نُمُوده) معناها: مثال (نموذج).

(بَالُوده) معناها: نوع من الحلوى (فَالُوذج).

2- الكاف]القاف المعقودة = g] التي تقلب أحيانا (كافا) مثل (كوش). ومعناها: الأذن). و(كَنج) (كنز) وهنا قـ ت الجيم زايا.

3- السين التي تقلب صادا مثل (سَرْد) معناها: البرد (صَرْد).

و بالإضافة إلى ذلك لم يتناول سيبويه الكلمات المركبة المعربة مثل سراب من (سير=مملوء) و(آب=الماء) أي ما يظنه الرائي كذلك وميزاب (ميز=مسيل) و(آب) الماء، كما لم يتناول الاشتقاق الذي أجرى على بعض الكلمات، فقد كان العرب يولدون من بعض الأسماء أفعالا، ويشتقون من هذه الأفعال مثل (أَلْجَـم) من (لِـجام) و(مَـهَرَ=ختم) من (مُـهْر=الخاتم) و(دَوّنَ) من (ديوان) وذلك كله شائع في اللغة العربية منذ العصر الجاهلي.

كما أن سيبويه علل إبدال القاف المعقودة أو الكاف الصماء بالجيم أو القاف لعدم وجود هذا الحرف في العربية، وهو أمر ينقضه واقع اللغة العربية، فإن وجود الكاف الصماء في كثير من اللهجات العربية المعاصرة يشير إلى حقيقة عرفتها اللغة العربية منذ القديم هو وجود الكاف الصماء في اللغة الفصحى، وحسب ابن خلدون (وعندهم [الجيل العربي لعهد ابن خلدون] أنه إنما يتميز العربي الصريح من الدخيل في العروبية والحضري بالنطق بهذه القاف[القاف المعقودة] ويظهر بذلك أنها لغة مضر بعينها فإن هذا الجيل الباقين معظمهم ورؤساؤهم شرقا وغربا في ولد

منصور بن عكرمة ابن حفصة بن قيس بن عيلان بن سليم بن منصور، ومن بني عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ابن منصور، وهم لهذا العهد أكثر الأمم في المعمور، وأغلبهم من أعقاب مضر، وسائر الجيل منهم في النطق بهذه القاف]القاف المعقودة[[أسوة، وهذه اللغة لم يبتدعها هذا الجيل بل هي متوارثة فيهم، متعاقبة، ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الأولين، ولعلها لغة النبي (ﷺ) بعينها، وقد ادعى ذلك الفقهاء أهل البيت، وزعموا أن من قرأ في أم الكتاب «أهدنا الصّـراط المستقيم » بغير القاف التي لهذا الجيل [القاف المعقودة] فقد لحن وافسد صلاته)[22].

ونلاحظ من الإبدال الذي أصاب الكلمات المعربة أن العرب قد ألحت عليهم فكرة التغيير فأبد من الحروف التي تفتقدها العربية ومن الحروف التي توجد في اللغتين، وفي هذه الحال تتضح الحساسية المفرطة التي واجه بها العرب الكلمات الدخيلة، وهو أمر يفسر لنا إبدالهم الشين سينا، والسين صادا...

لقد ظل ما كتبه سيبويه عن المعرب بالرغم من اختصاره أساسا لكل الدراسات التي تناولت هذا المبحث منذ القرن الثالث الهجري حتى اليوم، قفى على أثره القدماء، فنقلوا في الأغلب، كلامه عن المعرب بلفظه، كما آثر طريقته المرنة في التعريب وحضّ عليها المجددون من المحدثين. لقد حرر سيبويه المعرب من التعصب والجمود ومن الأقيسة الضيقة، فأدمج في العربية ما تساقط إليها سواء اتفق مع أبنيتها أو لم

يتفق، ومذهبه هذا ينسجم مع حقيقة أساسية هي أن المحافظة على اللغة تكمن في سلامة هيكلها وبناء الجملة فيها وفي مراعاة العلائق القائمة بين أجزائها، وأنه لا خطر على أية لغة من الاقتباس من لغة أخرى، فإن الاقتباس على إحدى الطرق الثلاث عند الحاجة هو الذي يمكنها من الثراء والحيوية الموصولة، ومن إقامة الحوار المستمر مع الحضارات، ومنذ القديم تفطن العرب إلى هذه الحقيقة، ففي الخصائص لابن جني ما يشير إلى ذلك **(إلا أنهم أشد استنكارا لزيغ الإعراب منه لخلاف اللغة، لأن بعضهم قد ينطق بحضرته بكثير من اللغات فلا ينكرها)**[23] فقد كان العرب يستنكرون الخطأ في الإعراب أكثر من استنكارهم إدخال الكلمات الأجنبية في العربية، والمقصود بالكلمات الأجنبية الكلمات التي لا تفتقدها هذه اللغة، ويستروح من بقية ما أورده ابن جني في موضعه أن هذا الاستنكار الأدنى ينتفي إذا كانت العربية في حاجة إلى الكلمات الأجنبية[24].

إن العربية تواجه حاليا تحديات العصر، ومن الواجب إذا أردنا لها الحياة أن نحكم اللقاء بينها وبين اللغات، خدمة لثقافتنا، وتطويرا لمجتمعنا، وإسهاما في بناء الحضارة الإنسانية.

د. علي الشابي

الهوامش :

(*) اطلعنا بعد كتابة هذا البحث على مقال قصير للدكتور عبد الوهاب عزام عنوانه (الفارسية في كتاب سيبويه) منشور بمجلة مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1961 ج 13, ص43-47 فسر فيه بايجاز بعضا من أقوال سيبويه الواردة في الأبواب الأربعة الخاصة بالمعرب من غير ربط للقضايا التي تطرحها هذه الأبواب ولا إبراز للحقائق التي تقوم عليها قضية المعرب في الكتاب، ولم يوضح الكثير مما استغلق من أسلوب سيبويه وقد قال في أخر بحثه (ولعل بحثا شاملا في هذا الموضوع ييسر عما قريب) ص47.

1- راجع مثلا، السيوطي: المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب، تحقيق عبد الله الجبوري، نشر بمجلة ا المورد ا العددان الأول والثاني، بغداد، 1971, ص 101-124.

السيوطي: المتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية... دمشق 1348.

2 - الخصائص، مصر 1913, ج1, ص405.

3 - طه حسين: مشكلة الإعراب، من مجلة مجمع اللغة العربية، الجزء الحادي عشر، القاهرة 1959, ص91.

4 - 252/1.

5 - الكتاب 414/2, يحدد ابن يعيش الأعجمية بقوله (واعلم أن قولهم العجمة ليس المراد منه لغة فارس لا غير، بل ما كان خارجا عن كلام العرب من روم ويونان وغيرهم)، شرح المفصل، مصر ج1, ص66 وقارن السيوطي: همع الهوامع، مصر 1327, ج1 ص32.

6 - راجع، ابن جني: المنصف في شرح تصريف المازني، تحقيق إبراهيم مصطفى وعبد الله أمين، مصر، 1954, ج1 ص180, وقارن ابن جني: الخصائص، 362/1.

7 - 22/2.

8 - المقتضب، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمه، القاهرة، 1386, ج3 ص325.

9 - الخصائص، مصر 1912, 362/1-363, وقارن ما قاله ابن يعيش (ت643) في شرح المفصل، مصر، (دون تاريخ) 66/1.

10 - راجع مثلا، محمد الخضري، حاشية الخضري على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك. القاهرة 1953, ج2 ص113, خالد الأزهري: شرح التصريح على التوضيح، مصر 1371, ج2 ص219.

11 - لم يضف النحويون إلى هذه القاعدة جديدا، راجع مثلا ما قاله المبرد في المقتضب، ج3, ص326, فلم يزد شيئا على ما قرره سيبويه عدا مثلين للبنية التي لا نظير لها في العربية هما (إطل) و(صعفوق).

12 - الكتاب 237/2.

13 - المعرب، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، ط ثانية، دار الكتب، 1969, ص57.

14 - الكتاب 412/2-413.

15 - راجع مثلا، ارتشاف الضرب، مخطوط دار الكتب، 1106 نحو، ورقة 13, الجواليقي: المعرب ص56.

16 - الكتاب 413/2.

17 - الكتاب 413/2.

18 - الكتاب 413//2.

19 - من الملاحظ أن شهاب الدين أحمد الخفاجي ردد في كتابه (شفاء الغليل فيما في كلام العرب، من الدخيل) المطبعة الوهبية، 1282, ص5-6, كلام سيبويه دون إدراك لمقاصده، وكذلك فعل علي النجدي ناصف في كتابه (سيبويه إمام النحاة)، مصر 1953, ص85, واكتفى بأن استروح من ظاهر النص معرفة سيبويه المحدودة للغة الافرسية.

20 - الكتاب 413/2.

21 - الكتاب 413/2.

22 - مقدمة ابن خلدون، تحقيق الدكتور علي عبد الواحد وافي، ط ثانية، لجنة البيان العربي القاهرة، 1968, 4/1393-1394.

23 - ج1 ص325-326.

24 - راجع أمر أبي مهدية والفارسي في الخصائص، ج1 ص326.